القدس

هناك مايربو على مئة رواية كتبت عن القدس في اللغة العبرية، بينما مانشر من أعمال روائية عربية في هذا المجال لايتجاوز عشر روايات في أحسن الأحوال، وهي متعددة الاتجاهات والمشارب والأهواء، وسأحاول أن أختار منها بعض النماذج لأتوقف عندها مقاربا لوجهات النظر التي طرحت من خلالها، ويمكن رصد أهم اتجاهاتها من حيث المبدأ على النحو التالي:

في نماذج من الرواية العربية

د. محمد الشنطي - الأردن

أولا - روايات تنطلق من وجهة نظر إسلامية، مثل رواية عمر يظهر في القدس، لنجيب الكيلاني.

ثانيا - أعمال روائية ذات طابع تاريخي اجتماعي مثل رواية برج اللقلق لديمة السمان

ثالثا - نصوص روائية علمانية تؤكد الطابع الإنساني العام، مثل رواية مصابيح أورشليم لعلي بدر

رابعا - روايات ذات طابع تعليمي مثل رواية عش الدبابير لجميل سلحوت.

رواية عمر يظهر في القدس للكيلاني

وربما كانت أقرب هذه الأعمال الروائية إلى الرؤية الإسلامية رواية نجيب الكيلاني عمر يظهر في القدس[1]، وأهمية هذه الرواية تكمن - بالإضافة إلى منطلقاتها الإسلامية - في التقنية الحديثة التي استخدمها الكاتب، والتي تعرف في أدبيات النقد بالغرائبية أو

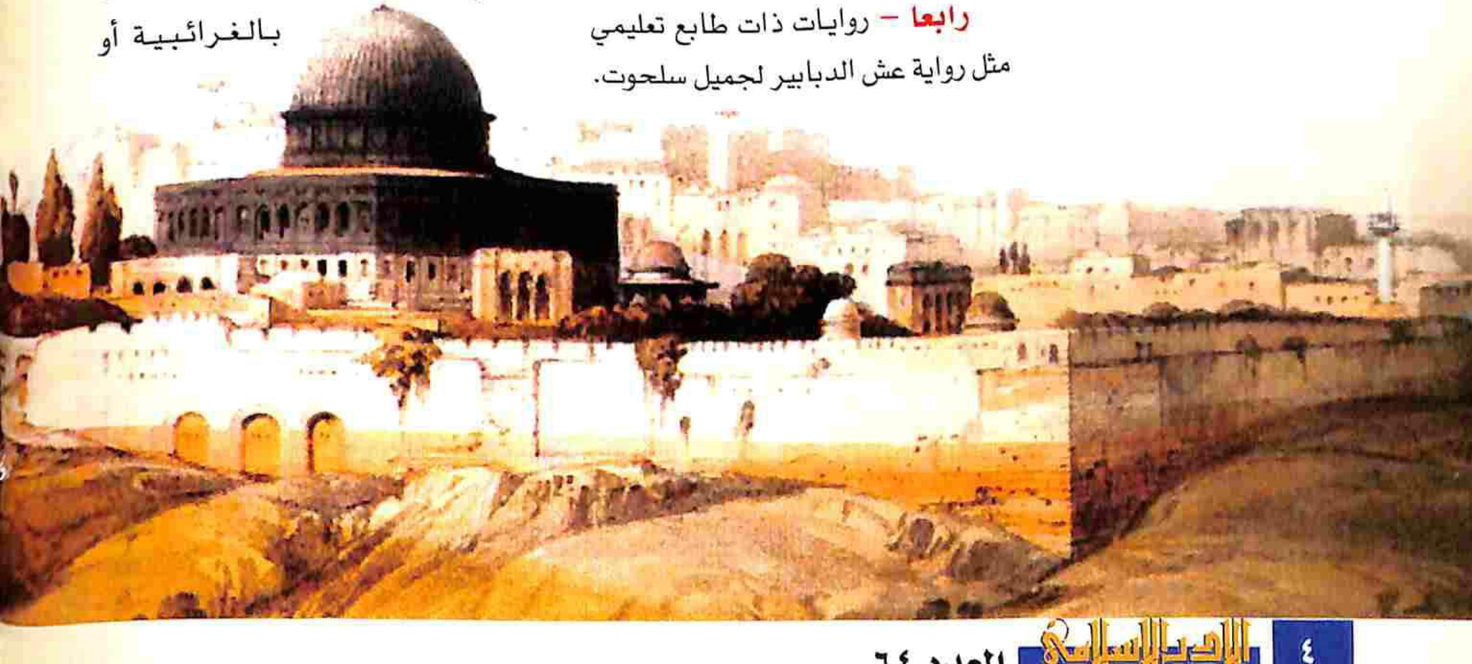

(الفانتازيا)، وتلامس سقف مايعبر عنه أحيانا بالأسطرة، وإن كانت هذه المصطلحات مجافية للرؤية الإسلامية غير أن الكاتب من الذكاء بحيث جعل من الأحداث الغرائبية حلما رافعا الحرج الشرعي عن نفسه. فالفكرة الرئيسة في الرواية تتمثل في ظهور الخليفة عمر بن الخطاب في القدس بعد نكسة عام ١٩٦٧، لتبدأ الأحداث وهو بصحبة الراوي الذي يقوم بدور السارد (المشارك) فهو ينتمي إلى المقاومة التي تشكلت في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧، وفي ذلك دلالة رمزية عميقة، فظهور عمر ابن الخطاب في القدس يفجر المفارقة التاريخية الهائلة التي تتمثل في الفاتح الأول المؤسس للوجود العربي الإسلامي في هذه المدينة المقدسة، واللحظة التاريخية التي تنتكس فيها الأمة عبر تفريطها في قبلتها الأولى ومسرى نبيها الكريم ﷺ، وظهور عمر (رضي الله عنه) إلى جانب أحد رجال المقاومة فيه تعبئة معنوية مقصودة من قبل الكاتب لأنها تحدد الخيارات المطروحة أمام الأمة، وهي تتلخص في خيار واحد محدود، وهو مقاومة المحتل، ورصد ردّات الفعل المختلفة أمام هذا الحدث بين مصدّق مؤمن بقدرة الله، ومكذب مستهزئ بالإغراق في الغيبيات يكشف عن حالة الاضطراب الشديد وفقدان الاتجاه التي سادت في أعقاب الانتكاسة التي زلزلت الثقة في النفوس، وهنا مكمن الخطورة، لقد بدا واضحا أن الأمر يتعلق بهزيمة نفسية وروحية في مرحلة ساد فيها الإحباط الشديد، فكان لابد من الاعتصام بالدين واسترجاع الثقة عبر رمز من رموز العزة باستحضاره في تلك اللحظة العصيبة، واصطحابه للمقاومين في إشارة بالغة الدلالة على الطريق المفضي إلى استعادة القدس بالطريقة ذاتها التي استخدمها قائد هذا الفتح المبين.

وتتعاظم المفارقة حين تجد من يتهم هذه الشخصية بالعمالة للمخابرات الإسرائيلية، وتزداد الأحداث تسارعا وتعقيدا حينما يلتقي عمر بالفتاة اليهودية راشيل التي تعلقت بشخصية عمر (رضي الله عنه) وحكمته البالغة وأسلوبه في التعامل، وتبدي إعجابها به وبالقيم التي يحملها فتتأثر به، وتسلم على يديه مما يثير العديد من التساؤلات حول شخصية راشيل وحول علاقتها بالمخابرات الإسرائيلية التي استفزها ظهوره (رضي الله عنه) على هذا النحو غير المسبوق في المجتمع ووسائل الإعلام، لكن ما قطع الشك باليقين محاولة اغتيالها من قبل الموساد الإسرائيلي، وقد أفضى ذلك إلى أخذ الحيطة والحذر وانتهى الأمر باختفاء عمر فجأة بعد أن تم تهريبه إلى خارج فلسطين، من قبل الراوي والطبيب محمود عناني والممرضة رجاء والطبيب عبد الله وهيب الذي عدل عن ماركسيته بسبب تأثره البليغ بعمر.

وهذا يعني أن ظهور عمر في القدس كان عامل تغيير جذري في ثقافة الكثيرين سواء من الأعداء اليهود كما هو الحال بالنسبة لراشيل أو من العرب الفلسطينيين كما حدث فيما يتعلق بالتحول من الماركسية إلى الإسلام، ولكن النبرة كانت عالية بعض الشيء عند الراوي الذي وصفه بقوله: «تصدر الكلمات من بين شفتيه قوية رصينة، تفوح منها رائحة الصدق والجلال بريئة من الشك والريبة، خالصة من كل بهتان»(٢) وكان يكفي أن يترك الفعل داخل الرواية يفضي بذلك. وكذلك في قول عمر لرجل المخابرات بعد أن سأله عن الفتوحات في عهده وكيف تم الانتصار رغم قلة العدة والعتاد:

«كنا دعاة قبل أن نكون محاربين، حملنا إليهم نور الله.. أسعد لحظاتنا كانت يوم أن يأتي رجل يعلن إيمانه.. كنا نفرح بذلك أكثر من فرحنا بالاستيلاء على حصن أو هزيمة جيش..» وتطلع عمر إلى السماء وقال:«كانت بغيتنا أن نثبت اليقين في القلوب قبل أن نثبت أقدامنا على الأرض المفتوحة.. أصبح الذين آمنوا جزءا من جيشنا.. »[٣].

نشرت الصحف كتابات تنال من استقامته وتشوه سمعة راشيل:«هذه جريمة يعاقب عليه الشرع، كيف يرمون فتاة بهذا الادعاء؟»وبعد أن أردف الراوي في تحد:« هي المسؤولة يا أمير المؤمنين» صمت عمر برهة وبدا على وجهه التفكير والحيرة:«لعلها مظلومة يا فتى».[٤].

بدت في أحاديث الراوي نزعة تعليمية لاتحتملها الرواية كفن، ولا تتصل بطبيعة ما حدث للقدس كرمز، وإنما كان الاهتمام منصبا على عمر (رضي الله عنه) بوصفه ممثلا للدين الإسلامي القويم، وموقف عمر بن الخطاب مما نشر عن الفتاة وانتصاره لها كما صوره الراوي يحدث خللا في السياق الجمالي للرواية .

ومما أخل بفنية القصة ما أورده المؤلف على لسان مرافق الخليفة:«أصول السياسة الحديثة يا أمير المؤمنين تقتضي التأني الزائد حتى نكمل العدة ونكتسب تأييد الرأي العام العالمي»،

قال عمر في أسى:«الرأي العام.. يا لها من مأساة.. استمع إلي جيدا.. الكفر ملة واحدة» ويبدو هنا وكأنه يعبر عن رأيه هو إذ حول شخصية عمر إلى قناع فكري يتستر وراءه.

نجيب الكيلاني

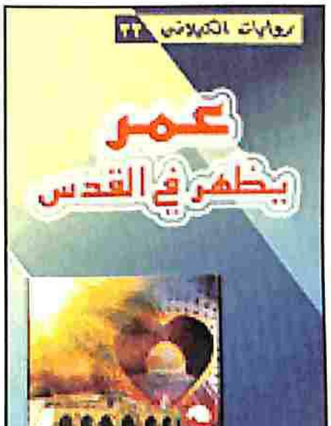

لقد حشد الكاتب الكثير من المعلومات في الرواية، فذكر كيف أن شاعر اليهود كعب بن الأشرف كان يشبب بنساء النبي، وأن حيي بن أخطب سجد لأصنام قريش ليؤلبهم أكثر على محمد ﷺ:

«هم دائما هكذا.. يلجؤون إلى أخس الحيل وأدناها.. أنا أعرفهم من قديم.. المعركة كانت ومازالت عنيفة.. يضرب العدو فيها بمختلف الأسلحة.. حديد وخبث وأكاذيب» [٥].

و يلجأ الكاتب إلى الكشف عن مادية اليهود وإعلائهم من شأن المال وجشعهم، فيصورهم بأنهم لا يقيمون وزنا حتى لعاطفة الأبوة أو الأمومة، فبعد أن شاع أمر إسلام راشيل وعلاقتها بأنصار عمر، وصارت الصحافة تلاحقها من أجل إجراء اللقاءات معها طلبا للإثارة والترويج التجاري المحض، تقول أم راشيل:«أرى أن تكتب راشيل مذكراتها، وتبيعها لكبريات الصحف، وبذلك نجني من ورائها ربحا كثيرا.. أما أبو راشيل فيقول لها:«تستطيعين أن تستغلي الموساد، فتسأله:كيف؟ فيجيبها بجشع واضح: لا تعطيهم شيئا إلا بثمنه».

ووالدا راشيل هذان يعلمان أنها كانت عميلة للمخابرات، وأنها مثلت أدوارا لا تليق بإنسانيتها، وهما يعلمان بعلاقتها السابقة بضابط المخابرات الإسرائيلي السكير «إيلي»، لذا فهما لا يثقان في إسلامها، ويعتبرانه دورا مخابراتيا ليس إلا.. فلم يستطيعا أن يستوعبا التحول الذي انتابها.

يورد الراوي على لسان أحد رجال المخابرات الإسرائيلية مخاطبا زميله قوله تعقيبا على ظهور عمر (رضي الله عنه) في

القدس«هذا الشيخ يتقمص شخصية عمر بن الخطاب.. في الحروب العتيقة تظهر الأمراض الغريبة.. الهزيمة أثرت على أعصاب العرب وهم ولوعون بالماضي والبطولات القديمة.. يجترونها في ليالي الأحزان» يعكس المؤلف بهذا القول نظرة اليهود للعرب واستهزاءهم بهم، وهي في الحقيقة عبارة تعكس رؤية الكاتب للتحدي الذي تواجهه الأمة جراء تلك النكسة.

قال الطبيب وهيب عبد الله ذو التفكير الماركسي مبديا رأيه في عمر، في حوار مع زملائه: «لاشك أنه أحد عمالقة اليسار في الإسلام وكذلك رفيقه أبو ذر الغفاري، يساريته كانت نقطة تحول في الكيان الاقتصادي والبنيان الاجتماعي والطبقي آنذاك».

وهذا القول يقود إلى حوار فكري لا ينسجم مع طبيعة الرواية، فضلا عن أنه من المقولات الشائعة في أدبيات الماركسيين العرب، ولا يخدم الرؤية المركزية في هذا العمل الروائي.

قال أحد قساوسة كنيسة القيامة: «أنا أحترم عمر ولا أشك في نظافته، إنني لا أتفق معه في العقيدة، لكنه إنسان كبير، رفض طلب البطريق الصلاة في الكنيسة عندما حان وقت الأذان.. أبى أن يصلي بها احتراما لمشاعرنا» (٦).

لقد أراد الكاتب أن يستحضر موقف عمر بن الخطاب في القدس لهدفين: الأول لتأكيد حقيقة الوجود الإسلامي في القدس، حيث كان المسلمون فاتحين ظافرين، وكيف تعاملوا باحترام مع كل الطوائف وحرصوا على حقوقهم، ويقارن بين هذا الموقف الإنساني النبيل للمسلمين وموقف اليهود المغتصبين الذين امتهنوا حقوق الفلسطينيين في القدس وعملوا على تهويدها. والهدف الثاني حث المسلمين على مقاومة المحتل لاسترجاع مجدهم وحقهم في القدس.

وقد حشد المؤلف مشاهد حوارية مختلفة في الرواية، وللحوار دلالاته، فهو يكشف من خلاله عن جوهر السلوك الإسلامي مقارنة بالقيم السائدة على نحو ما تخيل أنه دار بين راشيل وبين عمر (رضي الله عنه) حيث:

«تقول:راشيل: حسنا، لنكن أصدقاء.

فيرد عليها: وكيف تأمنين على نفسك مع رجل قد تراوده أمنيات طائشة؟

- إنني أثق فيك.

فيقول: وأنا أرفض هذه الصداقة المشبوهة.

فتسأله:

- أدينك يأمرك بذلك؟

- ديني يأمرني بألا ألقي بنفسي إلى التهلكة، ولا أقترب من الشبهات..»

ويستمر الحوار على هذا النحو، فيشرح لها بعض الأمور، ومنها ما حدث لأصحاب الكهف، وعزير، وخلْق آدم...، وبعد تتابع الأحداث وتعرّف راشيل على عمر أكثر، يدور هذا الحوار:

- أنت رجل صادق مؤمن.. لا تهاب أحدا إلا الله.

- أجل .

- جئت منزها عن كل غاية دنيوية منحطة.

- أنت تقتربين.. أتؤمنين بالله؟

- أؤمن به الآن.

- لماذا؟

- لأني رأيت إيمانك ينعكس عليك بالحق والخير والجمال.. "

ويمضي الحوار في هذا الاتجاه إلى أن تعلن راشيل إسلامها على يد عمر.

ومن الواضح أن الكاتب يستعيد النهج الإسلامي في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن بأسلوب مباشر قد لا يتسق مع جماليات الرواية بوصفها فنا، كما أن بعض العبارات التي وردت على لسان هذا الصحابي الجليل تحتاج إلى مراجعة، وهنا تكمن الخطورة في التعامل الروائي مع شخصيات الصحابة رضوان الله عليهم، فاستحضارهم في مثل

هذه الأعمال الروائية له مخاطره الشرعية الموضوعية، وله محاذيره الفنية، فأنى لكاتب، حتى وإن كان في حجم نجيب الكيلاني أن يتجنب مثل هذه المحاذير، من هنا كانت مشكلة الحوارات التي انطوت عليها هذه الرواية التي انصرفت جل الحوارات فيه إلى معالجة قضايا دعوية مفروغ منها مما يعرض العمل الفني إلى خطر التبسيط المخل، وهشاشة البناء الفني ووقوعه في أسر النزعة التعليمية، وهي نقيض البنية الجمالية؛ فضلا عن تعريض الرواية لشروخ في وحدتها وتماسكها حيث تشتت في اتجاهات متعددة وحول موضوعات مختلفة، إذ كان يفترض أن تكون الرواية ذات محور رئيس هو وقوع القدس في قبضة اليهود، وسبل إنقاذها؛ كما أن اللجوء إلى التشكيل الغرائبي (الفنتازي) ربما يوقع الرواية في مخاطر التصادم مع بعض الرؤى الشرعية فتثير جدلا لامبرر له، ولكنه اختار- كما أشرت - توظيف البنية الحُلُمية لأنها أكثر أمانا، فإذا ما تمعنا في هذا المقطع الحواري الذي يدور بين عمر والصحفيين، وهو حوار فكري ذو طابع جدلي ستتضح لنا المحاذير التي تحدثنا عنها بجلاء:

- الصحافة في خدمة الحق الحق..

- رأيت بنفسي كثيرا مما تسمونه حقيقة فإذا به زيف وكذب.

- أكنت ملكا؟

- بل خادم أمة محمد.

- ما رأيك في الصلح.. ؟ صلح إسرائيل مع العرب؟

- كيف يتم صلح بين اللص وضحيته؟

- لماذا قتلك أبو لؤلؤة المجوسي؟

- ولماذا قتل آباؤكم الأنبياء؟

- كنت تكره يهود الجزيرة؟

- كنت أكره الظلم والفساد والخيانة

- أنت متعصب..

- للحق وحده.

- أنت واصلت الحروب، وأسلت الدماء..

- قال لي الجراح:لابد من استئصال الزائدة الدودية الفاسدة كي تعيش..»

كما أن الزج بعمر الخطاب في مناقشة قضايا مفروغ منها(٧)، ولا تشكل موضوعا للخلاف أو النقاش يعرض الرواية لخطر الانزلاق في السطحية وهشاشة البنية الفنية كما جاء في الرواية حول رأي عمر في الطابعة وفي الوسائل الحديثة التي لم تكن معروفة في العصور القديمة: «أبدى عمر سروره لهذا الاختراع العجيب وازداد عجبه حينما علم أن آلة الطباعة تستطيع أن تنجز عشرات الألوف من النسخ في وقت قصير:

- إن مثل هذا الاختراع يذيب الحواجز والحدود ويقصر من المسافات.

الهاتف:

- هذه آلة عجيبة لنقل المسافات، سبحان المنعم!

السينما:

- أتعتبر السينما رجسا من عمل الشيطان؟

- السينما ككشف علمي مفخر، لكنكم ملأتم الوعاء بالقاذورات والأوبئة.

- «صاروخكم أو بعض طائراتكم تقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس في وقت قصير.. وتتساءلون أكان إسراء الرسول بالروح أم بالجسد؟!».

وقس على ذلك الحوارات المختلفة التي دارت حول الفطرة السليمة، وحول موضوعات متعددة، الأمر الذي أوقع الرواية في شرك الذهنية المجردة والتعليمية المحضة والوعظية المباشرة، وهي مسائل يتلطف الإبداع الروائي في استثمارها، ويحقق مضامينها من خلال التشكيل لا التقرير.

‹‹ رواية «كريماتوريوم» للكاتب الجزائري واسيني الأعرج

من الأعمال الروائية التي كتبت عن القدس ما أخذ طابعا إنسانيا يتجاوز المأساة الوطنية في بعدها العربي والإسلامي، وينظر إلى

المسألة من وجهة نظر مجردة من إطارها العقدي والتاريخي، مثل رواية "كريماتوريوم"(٨) للكاتب الجزائري واسيني الأعرج الذي يروي قصة سيدة فلسطينية تنتمي إلى أصول بربرية كانت تقيم في فلسطين، غادرت القدس متنكرة حتى لا يقتلها جنود الهاجاناه وهي في سن الثامنة بعد أن وقعت الهزيمة عام النكبة ١٩٤٨، أقامت في أمريكا وأصبحت فنانة تشكيلية، وشدها الحنين بعد أن أفل نجمها، وأوشكت على الرحيل، فأرادت أن تدفن في القدس، ولكن السلطات الإسرائيلية المغتصبة حالت دون تحقيق حلمها الأخير، وهذا أقسى ما يمكن أن يعانيه إنسان أن يحرم - حتى في موته - من أن يدفن في وطنه، والقدس — هنا — ليس مجرد مدينة، بل هي رمز للوطن بعامة، بل يتسع الرمز ليصبح معنى دالا على الحق المصادر، وعلى الحرمان من الحقوق الإنسانية التي طالما تغنى بها الغرب، وأقام مبادئه الليبرالية على أساسها معليا من شأن الحرية الفردية وتقرير المصير، وهنا تبرز المفارقة التي تجمع بين النقيضين على صعيد واحد.

اسم البطلة مي، ونطالع تفاصيل مأساتها في كراسة زرقاء تذكرنا بكراسة بطلة توفيق الحكيم في روايته (الرباط المقدس)، تلك الكراسة التي تضمنت اعترافات البطلة بكل ما اقترفته من آثام، بينما تنطوي كراسة مي على يوميات الألم والمعاناة، ولكن لكل منهما تقنية جمالية وأسلوب من أساليب السرد التي من شأنها أن تنتشل العمل

واسيني الأعرج

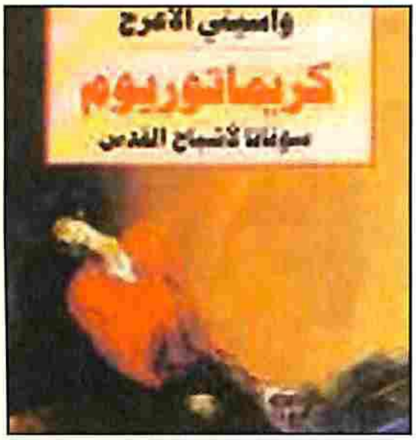

الروائي من الحكائية التقليدية، ومن التقرير المباشر، وكراسة عبد الرحمن شكري التي اعتبرت فرارا من البوح والاعتراف الذي يجعل من العمل سيرة ذاتية من شأنها أن تحرج صاحبها، ومثل هذه الكراسات من تقنيات السرد المألوفة في الرواية العربية والعالمية، وكراسة مي التي تتضمن مذكراتها التي دونتها في مستشفى نيويورك المركزي بعد أن فارقتها الحياة يثبتها الكاتب واسيني الأعرج في الفصل الثاني من الرواية تحت عنوان مدونة الحداد في ٢٠/ سبتمبر /١٩٩٩، «وقد هدأ كل شيء بما في ذلك ضجيج الحياة، وتضاؤل سلطان الجسد»، وبينما هي توشك أن تعالج سكرات الموت تتصل بإحدى المؤسسات المعنية بشؤون الموتى، واسمها (إليس آيلند لمصاحبة الموتى إلى راحتهم الأخيرة) وسلمت جسدها ليوضع في كريماتوريوم، حيث يتم حرقه دون أن يبقى منه شيء إلا العظم، وتبلغ درجة الحرارة ثمانمئة وخمسين مئوية، وفي ذلك مفارقة صادمة مع الزعم التاريخي الذي تستثمره الصهيونية حول الهولوكوست اليهودي الذي روجت له مستفيدة مما يروى عن المحرقة التاريخية التي تعرض لها اليهود أيام هتلر فيما تروي المصادر اليهودية من أجل أن يصاب يهود ألمانيا بالرعب فيفروا إلى فلسطين أرض الميعاد.

ومهما يكن من أمر فإن كاتب الرواية أراد أن يفجر هذه المفارقة حين جعل البطلة (مي) تدرك أن أكبر محرقة يمكن أن يبتلى بها المرء حين تسرق أرضه ويرمى على حواف المبهم" الناس لا يدرون أننا لا نعود

إلى أرضنا الأولى لنموت فيها فقط، ولكن لنعيش جزءا جميلا في الهواء، نستقبل النسائم التي تأتي من وراء البحر الميت". فالمحرقة هنا تعبر عن الاستلاب الكامل، وعن افتقاد الأرض التي يفترض أن يدفن فيها الإنسان، وهي تعبير فني، وليس شعيرة دينية على النحو المألوف عند الهندوس، إن الكاتب يريد أن يقول: إن الإنسان بلا وطن لا وجود له، ولو أردنا أن نناقش المسألة من الناحية الشرعية فإن الأمر يبدو مختلفا.

لقد عكفت مي على الشروع في كتابة يومياتها مسجلة تفاصيل مأساتها عبر مرحلة من أهم مراحل حياتها وأكثرها حساسية ورهافة فالتقطت نبض لحظات نادرة لتقدم أقسى مشهد يمكن أن يطوف بخيال إنسان معذب - يقف على التخوم الفاصلة بين الحياة والموت - بأوهام وأساطير مختلقة لتشبع غرائز طائفة من الشوفونيين (العنصريين)، والمنحرفين الذين يلوذون بأكناف الصهيونية التي تحولت إلى عقيدة سياسية ترفدها أساطير التلموديين من أعداء البشرية المتربصين بكل ما هو إنساني، ولتنسى الموت بشهوة الكتابة كما يتخيل المؤلف، ولكن المسألة لاتتصل بنسيان الموت بقدر ارتباطها بتوثيق الظلم الواقع عليها، إنها تعبير عن أشد مفارقات العصر مأساوية، تميط اللثام عن حضارة تجمع بين نقيضين، حضارة تنتصر للمصالح المادية على حساب القيم الإنسانية، وإن كان الموت الذي تريد أن تنساه ليس نقيض الحياة ؛ بل هو لون من ألوان الحياة التي يهون إلى جانبها الموت، فهي تقول: «وبالكتابة ربما استطعت أن أتخلص من بعض أنيني العميق، إن أسعفني الموت الذي يترصدني باشتهاء. الكتابة تفتح كل الجراحات المغلقة، وتدفع بعواصف الدم الجارف نحو الخروج للمرة الأخيرة».

وتسعى مي - عبر الكتابة - لاستعادة طفولتها في حارة المغاربة بالقدس، بدءا بسنة ١٩٤٧ حينما تقرر تقسيم فلسطين، فتذكرت حالة الحزن التي كانت تملأ الوجوه المرتعشة والتي اسودت فجأة وصارت كابية، فهذا القرار الظالم يعطي ما لا يملك لمن لا يستحق. ثم تاريخ ١٥ مايو ١٩٤٨ عندما أعلن الإنجليز انتهاء الانتداب بعد أن سلموا كل شيء لجنود الهاجاناه والأرجون والشتيرن. فقام الإنجليز ببيع الفلسطينيين لليهود، مما أكد لمي يومها أن شيئا مهما في المدينة الطيبة التي كانت تسمى مدينة الله كان قد انكسر، وتعبير مدينة الله التي استخدمها الكاتب تعبير مضلل، فكل المدن لله، وفي هذا التعبير تغييب للخصوصية الإسلامية والوطنية، وتكريس للنهج الذي دأب الكتاب والمفكرون من أصحاب الهوى على إشاعته لتلافي استحضار هذه الخصوصية، وإذا كانت القدس بالفعل هي موئل للديانات الثلاث فإنها في العقيدة الإسلامية مرتبطة بخصوصية هذه العقيدة دون محو التاريخ من ذاكرة هذه المدينة، ولكن من غير المقبول تغييب هذه الخصوصية وإحلال الذاكرة التاريخية البحتة مكانها.

وفي الرسالة الثانية تعود لطفولتها بحي المغاربة بالقدس، وهي تقرأ الإصحاح الرابع والعشرين من إنجيل متى، فتحس براحة داخلية، وهي تقرأ نص النهايات في إشارة شديدة الوضوح إلى عتبات الموت. ومن الواضح أن البطلة هنا نصرانية المعتقد، وهذا يكسب القصة بعدا إنسانيا، ولكنه في المقابل يخدم ذلك التوجه الذي أشرنا إليه، فالحرمان طال أولئك المواطنين الذين يفترض أن ثمة انتماء عقديا يجمعهم، وهذا ما يعري الغرب، ويجرد الادعاء اليهودي من الزعم بأن إسرائيل كيان ينتمي إلى حضارة الغرب الديمقراطية، ويكشف الوجه المادي ولعبة المصالح التي ارتضت لهؤلاء أن يغضوا الطرف عن الممارسات العنصرية والمذهبية دون التفات لأي التزام ديني أو إنساني.

وفي رسالة أخرى تكتب عن هواجسها الفنية، عبر العنوان الذي أعطته لمرضها سلطان الحياة،

وواضح من هذا العنوان تعلقها بالحياة، وهو أمر طبيعي يذكرنا بمأثورات القول التي ترى أن الحياة حلوة خضرة، و«أن الدنيا كالماء المالح كلما ازددت منه شربا ازددت عطشا»، فرغم ملوحة، بل مرارة المأساة تظل مي متعلقة بالحياة تنشد بقاءها عبر الكتابة التي تستعيدها، تتحدث عن هويتها المبهمة، وهي ليست كذلك، فقد كرمها الله بأن جعلها تحمل هوية المستضعفين من أهل الأرض المقدسة، ثم كرمها بأن جعلها تنتمي إلى أرض الشهداء المرابطين في تلك البقعة القصية من المغرب العربي؛ ولكن الكاتب واسيني الأعرج شاء لها أن تكون ملتبسة الهوية، مشتتة الانتماء، غير أنه لم يغفل ذلك التعلق الحميم بتلك البقعة المقدسة، وهي القدس، وإذا كان هول التشرد، وصدمة الصدود الذي جوبهت به من قبل العدو قد أفقدها شيئا من الثقة، وأخل بتوازنها النفسي مما جعلها غير معنية أبدا بأن «تسمى مريم أو أي اسم آخر، لكن خالها غسان اليساري يدعوها سوفونيسبي، أو صافو.. تبركا بأرض أجدادها الأولين من البربر والفينيقيين»، وتسرد تفاصيل هجرة العائلة إلى أمريكا (بعد أن قضت فترة في بيروت رفقة خالها أبو شادي) بحثا عن الخلاص الذي تنشده في مدينة نيويورك المدينة الكبيرة... التي لا تضيق بنا أبدا على حد تعبيرها في الرواية، ونيويورك التي لا تضيق باللائذين بها أبدا تزكية مجانية تخفي الجزء الأهم من الحقيقة، وهي في رمزها لأمريكا وللأمم المتحدة قد ضاقت بالعدالة وعجزت عن إحقاق الحق وأسهمت في صنع هذا النموذج الصارخ للظلم الذي وقع على الشعب الفلسطيني ممثلا في مي وأسرتها، تلك المدينة التي يدخلها المهاجرون بمحاذاة تمثال الحرية الذي كان رمزا خادعا لمدنية أوغلت في بربريتها حد البغي، تبدو نيويورك وكأنها بديل للقدس، ولكن القدس تظل قابعة في وجدان مي كالنهر الذي انحرف عن منبعه فتقطعت به السبل فضاع في صحراء بلا تخوم. ويستفيض واسيني في سرد تفاصيل دقيقة تأتي على لسان القبطان اليوناني عن تاريخ المدينة، وعبثا يحاول الكاتب أن يستفيض على لسان القبطان في تشتيت مياه النهر وتأميم المحنة بالحديث عن تاريخ القدس، ومختلف الأجناس التي هجرت إليها؛ إن القارئ ليشتم رائحة ما من خلال ماكتبه الكثيرون عن القدس محاولين تجريدها من الانتماء إلى جنس بعينه أو دين بعينه، وبالتالي تضييع الهوية في الوقت الذي تؤكد إسرائيل الهوية اليهودية للقدس، وأنها العاصمة الأبدية لها.

وفي رسالة أخرى تستعيد مساءات دراستها للفن في بروكلين، وأحيانا تستعيد مأساة العائلة، وكيف عرفت – وهي في أمريكا – أن بعضهم باعوا أراضيهم لإنجليزي أشهر إسلامه، فباعها بدوره ليهودي، وكيف اتخذ جدها قرارا عائليا بتحريم بيع الأراضي عملا بفتوى مفتي القدس

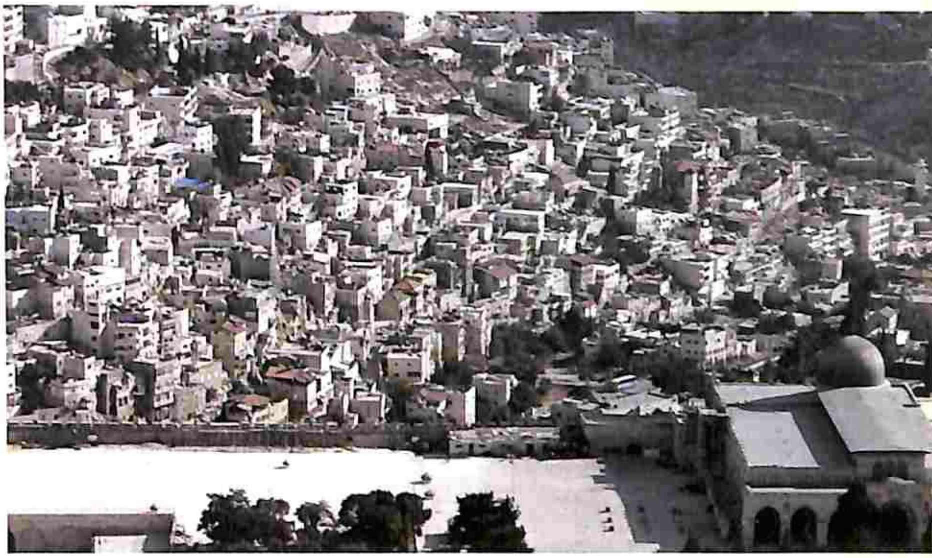

الشيخ أمين الحسيني. ولما أراد جدها إعادة شراء الأرض من اليهودي ضحك موظفو الوكالة اليهودية منه كثيرا، وقالوا له إن أرضا تخرج من يد فلسطيني لن تعود له أبدا. ثم طمأنوه أنه حتى ولو توصل إلى أن يسترجعها قانونيا بمساعدة الإنجليز فسيأخذها منه الهاجاناه بالقوة وسيطردونه منها، وأن هذه المحاولات عبثية، ولن تفضي إلا إلى الخيبة.

والحقيقة أن هذا الكلام يبطل الكثير من التهم الشائعة حول بيع المقدسيين وغيرهم من الفلسطينيين أرضهم لليهود، ويكشف عن حقيقة الخداع التاريخي الذي مارسته إسرائيل حين أشاعت مثل هذا الزعم، وهو لايعدو عن كونه فرية اخترعها اليهود وصدقها مغفلو العرب، كما فهد المارك أحد أبرز المجاهدين السعوديين الذي حارب في فلسطين ودحض تلك الإشاعة عن بيع الأراضي لليهود من خلال كتابه الذي ألفه حول هذه القضية، شأنه في ذلك شأن صالح بويصير في كتابه «جهاد شعب فلسطين في نصف قرن» وقائد معركة القدس عبد الله التل في مذكراته.

انكفأت مي على نفسها منذ هذه الحادثة التي ذكرتها في ما كتبته يوم الجمعة ٢٢ أكتوبر ١٩٩٩، فصمتت لمدة يومين، وبعد أن انتابتها حالة هستيريا صاحت في وجه خالتها: كلكم قتلة.. مجرمون.. سفلة كذابون.. خبأتم عليّ موت أمي وأخي وجدتي. لكن خالتها عرفت كيف تهدئ من روعها فحكت لها تفاصيل المأساة، مع ظهور الصهيونية وثيودور هرتزل الذي عرض على السلطان العثماني شراء أرض فلسطين، فرفض السلطان وكاد الأمل في إحياء إسرائيل أن يموت. لكن وعد بلفور كان قد ظهر بعد الخدمة الجليلة التي أسداها العالم الكيميائي اليهودي وايزمان للإنجليز، فضاعت الأرض، لكن الخالة تقول لمي لاحقا: لا تخافي، لن نشفى أبدا من مرض الأرض، وربما بدا الحديث – هنا – مباشرا؛ إذ تذكر الحقائق عارية، ولكن ما يجعل ذلك مقبولا من الناحية الفنية وروده في إطار المذكرات التي تسمح بهذه المباشرة لطبيعتها التوثيقية التي تدون مجريات الأمور كما وقعت بالفعل.

وفي باقي اليوميات نقرأ ما دونته مي من أفعال جنود الهاجاناه وتنكيلها بالعائلة، وبعائلة مفتي القدس، وبحارة المغاربة بالقدس، ومن الواضح أن الاقتران بين عائلة مي وعائلة المفتي تهدف إلى عدم تمييز اليهود بين النصارى والمسلمين فيما ارتكبوه من ظلم وطغيان، وورود هذه

الوقائع في القدس على وجه التحديد يعطيها طابعا نموذجيا لما جرى في فلسطين بشكل عام وتحديد حارة المغاربة كمكان.

أما ما روي من تفاصيل متعلقة بالحياة في نيويورك وميلاد ابنها (يوبا كونراد) ويوبا هو الذي يفتتح الرواية باعترافه بأنه لم ير القدس سوى ثلاث مرات. كانت المرة الأولى عندما نبهني جدي من أمي سيدي بومدين لمغيث الأندلسي وأنا في غفوة على الجهة الأخرى من ساحل البحر الميت. والمرة الثانية عندما كان في أوبرا لاسكالا بميلانو يعزف لاترافياتا على البيانو في حفل تكريمي لماريا كلاس، حينها انتابته أمه مي التي سرقها الموت منه. والثالثة عندما سافر بجواز سفر أمريكي إلى أورشليم محملا بثلاث جرار رخامية صغيرة مليئة. ولهذه الزيارات الثلاث دلالات عميقة، فالأولى تكشف عن التواصل والانتماء، فمنطقة البحر الميت من أقدم الأماكن في التاريخ البشري، وهي تمثل عودة إلى الجذور، خصوصا برفقة الجد؛ أما الحادثة الثانية فهي تميط اللثام عن تواصل هذا الانتماء على الرغم من الاندماج في الحياة الأمريكية، والتعايش مع أنماط السلوك في الغرب وموت الأم التي تشكل الجذور والأصول ؛ وأما المرة الثالثة، فالعودة إلى القدس بعد اغتصابها وتسميتها باسمها اليهودى وبجواز سفر أمريكي مع الجرار الرخامية الثلاث تأكيد للتجذر في القدس عبر ما ترمز إليه هذه الجرار، وعلى الرغم من المظاهر التي تتصل بطبيعة السفر إلى القدس، وهي ترمز لعودة الفروع إلى الأصول مهما كان الأمر موحيا بخلاف ذلك، حيث الجواز الأمريكي والاسم الإسرائيلي.

◁◁ رواية بنات يعقوب لمحمود سعيد

أما رواية محمود سعيد (بنات يعقوب)[9] التي صدرت عام ٢٠٠٨ متكئة على الأساطير آخذة بطرف من التاريخ فهي تأتي مفندة لمزاعم اليهود التي ينسبونها إلى التوراة، ويؤكد المؤلف أن معظم تاريخ اليهود يرتبط بالعراق، وهو ينطلق من رؤية علمانية، ولا يأبه لما ورد في الكتب السماوية، فينكر علاقة اليهود ببناء الأهرامات بمصر، ويثبت علاقتهم ببابل، وبناء الجنائن المعلقة معتمدا على آراء بعض المؤرخين. وهي رواية مكتوبة من وجهة نظرعلمانية تنكر بعض ما جاءت به الأديان، محاولة العبث بالتاريخ أو حرف مساره. وتظل رواية عمر يظهر في القدس لنجيب الكيلاني الأقدر على تقديم وجهة النظر الإسلامية.

هذه بعض نماذج من الروايات التي عالجت موضوع القدس من وجهات نظر مختلفة، وهناك العديد غيرها، ولكن المجال لايتسع لمناقشتها على نحوشامل ■

الهوامش:

(١) نجيب الكيلاني، عمر يظهر في القدس، مؤسسة الرسالة، عمان، ط٥، ٢٠٠١.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٩.
(٤) الرواية، ص ١١١.
(٥) الرواية، ص٨٠.
(٦) الرواية، ص٩٧.
(٧) الرواية، ص٥٩.
(٨) واسيني الأعرج، كريماتوريوم، المؤسسة العربية، بيروت، ٢٠٠٨.
(٩) محمود سعيد، بنات يعقوب، لندن ٢٠٠٧.